لمسات إنسانيّة

عندما يبكي قدوة البشر

صلى الله عليه وسلم

تمكين TAMKEEN

KNO SCHOOLS
EMPOWERING HUMANITY

360i ADVANCE THROUGH TECHNOLOGY | KNO SMART SCHOOLING

د. خميس بن عبيد العجمي
رئيس مجلس إدارة مجموعة تمكين الاستثمارية
رئيس مجلس أمناء سلسلة مدارس كينو الخاصة

في لحظة صمت مهيب، وقف الصّحابة مذهولين أمام مشهد عظيم، ليس من معركة ولا لفتح مبين، إنّما كان مشهد بكاء لرجل، ولكنّه ليس رجلاً عادياً، إنّما هو نبيّ اللّٰه محمد ﷺ، المختار من بين العالمين لحمل أعظم رسالة في التاريخ، فها هي دموعه تنساب بهدوء على خديّه الشريفين، وقلبه ينبض بأرقّ المشاعر الإنسانيّة، ففي تلك اللحظة أدرك من حوله أنّ الرحمة ليست ضعفاً، وأنّ البكاء ليس انكساراً، إنّما قمّة الإنسانيّة حين يجتمع في قلب واحد كمال النبوّة وجمال البشريّة...

فقد كان في بكاء النبيّ ﷺ درس للأمّة بأنّ الدّمعة لغة القلوب النقيّة، وأنّ الرحمة جوهر الإيمان، وأنّ الحزن على الآخرين عبادة، وأنّ الخوف من اللّٰه تعالى هو طريق المتّقين، فكانت دموعه تنهمر في مواقف خلّدها التاريخ، لنتعلم من تلك العبرات كيف نحيا بقلوب رحيمة، ونفوس شفافة، وارواح متصلة بخالقها، وكثيرة هي تلك المواقف التي دفعت النبيّ ﷺ للبكاء..

دموع الرّحمة على الأمة، فقد بكى خوفاً على أمّته بكاء الأب الحاني الذي يرى أبناءه في طريق الخطر، فكان يقوم ويصلّي ويدعو ويبكي حتى تبلّل دموعه لحيته الشريفة، وهو يردّد: "أمّتي أمّتي"، فأرسل اللّٰه تعالى إليه جبريل عليه السلام يسأله عن سبب بكائه، مع أنّ اللّٰه أعلم بحاله، ولكنْ ليعلّمنا كيف يكون القلق على الأمة، فأخبره النبي ﷺ بما في قلبه، فعاد جبريل بالبشارة من اللّٰه: "إنّا سنرضيك في أمّتك ولا نسوؤك"، فما وراء بكائه هذا إلاّ قلب امتلأ حباً ورحمة، قلب لم يشغله الملك عن الرعيّة، ولا المنصب عن المسؤوليّة، وقد كان ﷺ يدرك ثقل الأمانة، فيبكي خوفاً من أنْ يزيغ أحد من أمّته، أو يضلّ عن الطريق...

فهنا درس نتعلّمه عند تحمّل مسؤوليّة، بوجوب استشعار ثقلها، والبكاء على من استرعاه اللّٰه عليهم، لا الاستكبار والتجبّر...

دموع الخشية من اللّٰه، فقد كان ﷺ إذا قام في صلاته، خاصّة في جوف الليل، يقف بين يديّ ربّه، يتلو آيات القرآن، فإذا مرّ بآية فيها وعيد أو تخويف، بكى واسترجع، وفي إحدى المرّات، كان يصلّي وأبو بكر رضي اللّٰه عنه واقف خلفه، فسمع بكاءه الشديد، ويقول عبد اللّٰه بن الشخير: "أتيت رسول اللّٰه ﷺ وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء"، فهذا خشوع من قلب عرف عظمة اللّٰه، وأدرك جلاله وكماله.

وهنا درس بأنّ الصلاة ليست مجرّد حركات جسديّة، إنّما رحلة روحيّة، ولقاء بين العبد وربّه، وحوار بين القلب والخالق، فالدّمعة في الصلاة هي أصدق علامات الخشوع...

دموع فقده لولده إبراهيم، فعندما توفي ابنه إبراهيم وهو طفل صغير، حمله النبيّ ﷺ بين يديه، وانهمرت دموعه الشريفة، وقال: "إنّ العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلاّ ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون"، ففي هذا الموقف نرى إنسانيّة النبوّة في أبهى صورها، فلم يكن ﷺ صنماً لا يتأثّر أو لا يشعر، بل كان بشراً كاملاً، يحزن كما يحزن الآباء، ويبكي كما يبكون، لكنّه مع حزنه لم يتسخّط ولم يجزع، إنّما أظهر الرّضا بقضاء اللّٰه..

وهنا درس للأمّة في كيفيّة الحزن في ظلّ الإيمان، وكيفيّة انسكاب الدمع دون انهيار القلب، فالبكاء رحمة، ومن لا يرحم لا يُرحم، ومن قسا قلبه حُرم من رحمة اللّٰه...

دموع فقده لعمّه حمزة رضي اللّٰه عنه، ففي معركة أحد، استشهد حمزة بن عبد المطّلب، عمّ النبي ﷺ وأخوه من الرضاعة، وقد مثّل به المشركون تمثيلاً بشعاً، ولمّا رآه النبيّ ﷺ بتلك الحال، بكى ثم شهق شهقة ارتفع صوته بالبكاء معها، وقال: "لن أُصاب بمثلك أبداً"..

فهنا درس على كيفيّة ظهور الوفاء والمحبة والتقدير للأحبّة، فكانت الدّموع دموع تقدير لتضحيته، وإظهار لقيمته، ورسالة للأمة أنّ الشهداء أحياء في قلوبنا قبل أنْ يكونوا أحياء عند ربهم...

دموعه عند قراءة القرآن، فقد طلب النبيّ ﷺ من عبد اللّٰه بن مسعود رضي اللّٰه عنه أنْ يقرأ عليه القرآن، فقال ابن مسعود: "كيف أقرأ عليك وعليك أُنزل؟!" فقال ﷺ: "إنّي أحب أنْ أسمعه من غيري"، فقرأ ابن مسعود من سورة النساء حتى بلغ قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيداً﴾ [النساء: 41]، فقال النبيّ ﷺ: "حسبك الآن"، فالتفت إليه ابن مسعود فإذا عيناه تذرفان بالدموع،

فقد بكى النبي ﷺ وهو يستمع للقرآن الذي أُنزل عليه، بكى وهو يتصوّر ذلك اليوم العظيم، يوم القيامة، حين يُدعى ليشهد على أمّته، فكان بكاؤه تأثّراً بكلام اللّٰه تعالى، خاصّة في الآيات التي تذكّر بالآخرة أو بالحساب..

وهنا درس بأنّ القرآن ليس للحفظ بل للتدبّر والتأثّر، وأنّ القلب الحيّ يتحرّك بكلام اللّٰه، وأنّ من علامات صدق الإيمان البكاء من خشية اللّٰه عند سماع القرآن،﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: 2].

دموعه على قبر أمه، فقد زار النبيّ ﷺ قبر أمه آمنة بنت وهب، فبكى وأبكى من حوله، وقال ﷺ: "استأذنت ربي في أنْ أستغفر لها فلم يُؤذن لي، واستأذنته في أنْ أزور قبرها فأُذن لي، فزوروا القبور فإنّها تذكّر الموت"، فهذا المشهد يكشف عن برّ النبيّ ﷺ بأمّه حتى بعد وفاتها، وحزنه عليها، وحنينه إليها...

وهنا درس في البرّ والوفاء، وتذكير بأنّ الموت حقّ، وأنّ زيارة القبور تُذكّر بالآخرة وتُرقّق القلب..

دموعه عند رؤية الفقراء والمحتاجين، فقد كان ﷺ إذا رأى فقيراً أو مسكيناً تأثّر قلبه وبكت عيناه، فذات مرة رأى رجلاً عليه ثياب رثّة، فبكى ﷺ رحمة به، ثم قام يحثّ الصحابة على الصدقة حتى جُمع له ما يكفيه، وفي موقف آخر، جاءه وفد من مُضَر وعليهم ثياب بالية من شدّة الفقر، فتغيّر وجه النبيّ ﷺ ودخل بيته ثمّ خرج، فأمر بلالاً أنْ يؤذّن للصلاة، ثم خطب في الناس وحثّهم على الصدقة..

فهنا درس عن أنّ الإيمان ليس عبادات فرديّة فقط، بل هو إحساس بالآخرين، وشعور بمعاناتهم، ومسارعة في تفريج كربتهم..

وبعد،

فإنّ بكاء النبي ﷺ في هذه المواقف المختلفة يحمل لنا دروساً تربويّة وإيمانيّة عميقة، منها؛ أنّ البكاء من خشية اللّٰه علامة إيمان وليس ضعفاً، وفي ذلك قوله تعالى:﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً﴾ [الإسراء: 109]، وأنّ الرحمة جوهر الإنسانيّة، فمن لم يَرحم لم يُرحم، ومن قسا قلبه بَعُد عن اللّٰه، وأنّ القيادة الحقيقيّة تكون بالقلب قبل السيف، فالنبيّ ﷺ قاد الأمّة بحبّه ورحمته وتواضعه، لا بجبروته وقسوته، وأنّ التّوازن بين القوّة والرّحمة هو جوهر إنسانيّتنا وأساسها، وأنّ البكاء تطهير للنفس، وترقيق لروح الأفراد، والمجتمع الذي يفقد الدّمعة يفقد الرحمة، ويتحوّل إلى غابة من الذئاب....

لذلك فعندما يبكي قدوة البشر ﷺ، فإنّه يرسم لنا طريق الإنسانيّة الكاملة، حيث تجتمع القوّة مع الرحمة، والشجاعة مع الحنان، والعظمة مع التواضع، فدموعه ﷺ كانت مدرسة متنقلة تعلّم الصحابة ومن بعدهم كيف يكون القلب حياً نابضاً بالإيمان....

فقد بكى ﷺ على أمّته وهي لم تُخلق بعد، فكيف بنا نحن الذين نعيش في زمانه بالرّوح وإنْ فاتنا زمانه بالجسد؟ أفلا يستحق منّا أنْ نبكي شوقاً إليه، وحباً له، وحزناً على تقصيرنا في اتبّاع هديه؟

فأعيننا اليوم قد جفّت من كثرة الغفلة، وقلوبنا قد قست من كثرة الذنوب، فلنعد إلى مدرسة النبوّة، لنتعلّم كيف نبكي؛ نبكي من خشية اللّٰه، نبكي على أنفسنا وتقصيرنا، نبكي على إخواننا المحتاجين، نبكي شوقاً إلى الجنة وخوفاً من النار، نبكي حباً للّٰه ولرسوله ﷺ.

فاللهمّ ارزقنا حبّ نبيك ﷺ، واجعلنا من المتّبعين لسنّته، الباكين من خشيتك، الراحمين لخلقك، واحشرنا في زمرته يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى اللّٰه بقلب سليم.